أدب الرحلة عند جودة السحار: دراسة قصة "أذرع وسيقان"

وسيم حسن راجا *
ود. سيد عبد المجيد أندرابي **

إن أدب الرحلة هو مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه عن عادات وسلوك وأخلاق ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد.[١]

ويعد أدب الرحلة لونا من الألوان الأدبية ينقل فيه الرحالة العناصر الثقافية والاجتماعية المختلفة من خلال ما يصادفه من مظاهر وعادات وتقاليد وأساليب ومعالم أثرية لتلك المنطقة التي زارها، يصف بذلك انطباعات أفراد المجتمع، ويسجل أساليب عيشهم، وينقل مختلف فنونهم وصناعاتهم، معبرا عن حقائقهم ودقائقهم. إن أدب الرحلة من أجمل الفنون الأدبية و"جودة السحار" له رحلات طويلة وقد أثَرت أحداث تلك الرحلات من بعض أعماله الفنية وإن كان صاغها قصصا. ويقول النقاد عن هذه القصص إنها تجارب شخصية للمؤلف. وجدير بالذكر أن السحار كان كلما سافر الى بلد ما، خرج برواية أو مجموعة قصص تعكس إحساسه بالرحلة وبالناس الذين صاحبهم.

ويحدثنا السحار أحيانا عن قصص بعض زملائه في الرحلة، ومن خلال تلك القصص ينقل لنا بعين الفنان اللماحة صورا ولوحات بديعة، ويصف لنا الأماكن التي أقام فيها، والتي برع السحار في وصفها، وأتى بها صورا حية تكاد تنطق وتسمع فيها أصوات جداول الحياة، وحفيف الأشجار، وصفير الرياح، ويسبح القارئ بخياله مع

---

* باحث الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا أونتي بورة
** الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا أونتي بورة
١. الرحلة في الأدب العربي لناصر عبد الرزاق ص ٢٥

السحار، ويشاهد الأعمال الفنية المختلفة التي رآها القاص في مختلف البلدان. وكان نتاج السحار من هذه القصص ثلاثا "وكان مساء"، "أذرع وسيقان"، و"جسر الشيطان". وكلها لوحات نابضة بالحركة والحياة، وينقلنا السحار فيها بين سحر الشرق وجمال الغرب. بالرغم من البراعة التي نقل السحار فيها المشاهد والأماكن التي زارها إلا أن بعض قصصه غلب عليها الطابع التسجيلي. فقد كان كالسائح الذي يمسك بورق وقلم ليسجل معالم مدينة قام بزيارتها من خلال رحلة سياحية.

سافر السحار الى إندونيسيا والهند في يوليو سنة ١٩٦٨م فكتب القصة "أذرع وسيقان" (Arms & Legs) السحار هو بطل لهذه القصة وبدأت رحلة "أذرع وسيقان" بتعيينه ضمن البعثة الثقافية المسافرة إلى إندونيسيا والتي ستمر في طريقها بالهند، ونقش كل ما عبر به في رغبته منذ الدقائق الأولى في الرحلة التي كلف بأعمال السكرتارية فيها. وخلال هذه الرحلة يمكث السحار يوما واحدا في "ممباي"(Mumbai) البلاد الشهيرة الكبيرة في الهند. إن الطابع هنا لهذه القصة هو الوصف والتصوير والإكثار من الصور الفنية الجميلة، فإن السحار ابتهج بعين فنان لماحة استطاع بمساعدتها أن يمدنا بالعديد من اللوحات التي وقعت عليها عيناه في طريق رحلته، لوحات تعبر بصدق عما رآه من مشاهد الفقر تارة، وعلامات الترف تارة أخرى.

إن أولى لوحاته بدأها مطار بممباي حيث سيقضي أعضاء البعثة يومين قبل انطلاقهم إلى إندونيسيا، وصفها لنا السحار بإمعان، فها هو يقول عن علامات الفقر ومظاهره:

"ركبنا سيارة الشركة التي تكلفت بنقلنا وانسابت السيارة في طريق مقفر والمطر يسقط مدرارا والرطوبة قد انتشرت في الجو حتى ثقل تنفسنا وأحسسنا كأننا نختنق، ورحت أتفرس في البيوت القائمة على جانبي الطريق، فإذا بها أكواخ حقيرة ومنازل متداعية أسقفها والأجزاء العليا منها بالطحالب الخضراء التي عاون المطر المنهمر على نموها، وخيل إلىَ أن المنازل كلها قد صدئت".[١]

[١] . أذرع وسيقان السحار ص ٢٥

وبعد تصويره للمواقع التي اجتازها السحار في طريقه إلى المدينة انتقل ليرسم لنا صورة مجسمة لمواطني هذه الحاضرة، حيث يشير إليه:

"والناس يعبرون الطريق وقد تعرف سيقانهم وغطت أجسامهم أثواب من القطن الأبيض. ووضعوا لفائف من الأقمشة تحت إبطهم فكانوا أشبه بالذاهبين إلى الحمام في أحيائنا الوطنية، ونشر كل منهم مظلمة سوداء. ولمحت مئات المظلات السود، فقفزت إلى ذهني صور أسراب من الغربان غطت شجرة ضخمة".[1]

وصف دقيق امتاز صاحبه بالدقة في كل شيئ، بالانضباط في الإظهار عن إحساساته، وفي نقل ما تقع عليه عيناه وأيضا بالدقة في مسرة وإشباع تعطشه للمعرفة ويواصل نقل الصور الحية للبلدة التي وصل إليها، فنراه يقول:-

"ووصلنا إلى مدينة عامرة بالحركة، السيارات تسير على الجانب الأيسر، والفنادق الضخمة والبيوت الحديثة تقوم على جانبي الطريق، ولكن الغلمان العراة الحفاة يلعبون عند أبوابها".[2]

وكذلك وبسطور قليلة ولوحات نابضة بالصدق، أعطى السحار فكرة عامة عن البلد وكيف أن ممباي يجتمع فيها الفقر والبذخ، وبذخ ينعم به القلة القليلة.

قضي السحار في ممباي خلال شوارعها المدة المحددة من أيام الرحلة واشترى ما اشتهى، برغم تفنيد الزملاء لأن الرحلة ستمر ممباي أثناء عودتها ولكن السحار لا يؤجل عمل اليوم إلى الغد، فحينما يقصد شيئا لا يماطل إجراءه.

ويمكث السحار يوما واحدا في ممباي، وبرغم قصر المدة بممباي ناقش كثيرا من المعلومات، وربما كان قد قرأ كل هذه المعلومات من قبل، فقد تحدث عن فكرة البغايا في الهند، وكيف أنها ظاهرة طبيعية لا تبعث عن المثير، فالنساء الرهيبات من أسر راسخة تقدمهن أسراتهن للمعبد لتخدم فيه، وتقتنع رغبات الكهنة ورجال

---

[1] . نفس المرجع ص ٣٢

[2] . أذرع وسيقان ص ٣٥

الدين، ثم انتشـــرت بعد ذلك وملأت شـــوارع الهند. وعرض أيضـــا للآلهة المتعددة في الهند ويذكر من ضمنها ألهات الهند التي لا تعد ولا تحصى باستعجاب.

"من لي بفلسفاتهم وآرائهم ومعتقداتهم وآلهتهم الذين بلغوا ثلاثين مليون اله!"[١]

وهكذا ناقش ظاهرة تعدد الأزواج التي ما زالت باقية في بعض مناطق الهند. فهو لم يترك ظاهرة أو عادة رآها في الهند إلا وتحدث عنها، حديث العالم بأصـــول هذه الظاهرة، ويدل هذا على شـغف السـحار بالقراءة في مختلف أنواع المعرفة. ثم يفصـل لنا حقيقة الفلسفة البرهمية(Berhamanic) ومذهب وحدة الوجود:

"إنّ فكرة البرهمي عن الإله كانت ســـديدة، ولكن الأســـاطير واجتهاد والفلاســـفة والحكماء، غطت الفكرة البســـيطة بأكداس من الآراء والنظرات حتى حجبتها"[٢]

ثم غادر السحار مع البعثة "ممباي" متجها إلى "إندونيسيا"، ونزلت الطائرة بمطار كلكتا على حدود الهند، هناك تعرف في هذا المطار على ســـيدة أميركية، وتواعدها السـحار على لقائها في "بانكوك" حيث ســـيتخلف عن الركب لأنه تحتم عليه ذلك، وسيلحق بهم بعد ذلك في "جاكرتا".

ومع أن مكوثه في "بانكوك" كان عابرا، إلا أنه لم يتخل عن عادته التي اعتادها وهي نظرته للأشياء نظرة فاحصة حتى يتسنى له عندما ينفرد بنفسه أن يسطرها على ورقة مخرجا منها صورة رائعة متأنقة الألوان فاتنة التعبيرات.

وكما سلط الضوء على مواطن ممباي الذين مر في طريقهم، لم ينس السحار هنا سكان "بانكوك" الذين رأى منهم العمال في أثناء ذهابهم إلى أماكن عملهم، يقول :-

"وانســـابت الســـيارة في الطريق بين المروج، وما لبثت أن بلغت المدينة وقد خرج

---

[١] . نفس المصدر ص٢٥

[٢] . نفس المصدر ص ٣٧

العمال من دورهم إلى أعمالهم في المزارع وغطوا رؤوسهم بقبعات من الخوص مخروطة الشكل ووضعوا على أعناقهم أعوادا من البامبو تتدلى من أطرافها أسفاط ملئت بالموز وثمار الحقول.[1]

وواصل السحار يحدثنا حديث العويص في القراءة عن الهند وعن بوذا وعبادته وسبب تركه الرفاهية والنعيم اللذين كان يعيش فيهما، وفضل حياة الشقاء والفقر عليهما، وانتقل بنا إلى حديثه عن اليوجا(yoga)، وإبعاد هذه الرياضة الروحية، واعتناق بوذا لها، وهكذا استمر السحار في الحديث إلى ما ينتهي. وطاف أيضا شوارع بانكوك ونقل كل ما تقع عليه عيناه على صفحات قصته هذه، وترك بانكوك ليستقل الطائرة مع أعضاء البعثة حيث اتجاههم الأصلي، إلى جاكرتا:

وهبطت الطائرة في مطار "كماجوران" بجاكرتا وخف المستقبلون من وزارة الخارجية ووزارة الدين ووزارة التعليم والسفارة المصرية ورحبوا بنا وسرنا في مظاهرة كبيرة حتى بلغنا المقاعد التي أعدت لنا.[2]

حينما وصل السحار إلى جاكرتا بدأ يصور شعبها ووصف شوارعها وطرق مواصلاتها التي استرعت اهتمامه منها الدراجات التي تملأها الشوارع ويستخدمها الناس جميعا حتى الفتيات، وأيضا هناك "البتشا" وهي تتكون من صندوق يركب على مقدمة الدراجة، ويستعملها الناس في كافة تنقلاتهم.

ولم يهمل السحار شيئا إلا وناقش عنه، مظاهر الطبيعة من ماء وسماء وخضرة وأشجار وثمار مختلفة متنوعة، والمقابلات التي تمت في كل مدينة، ينقلها السحار بروح الفنان الشفافة التي تكشف عن سمات الأشياء التي تمر بها ولا تكشفها غير روح الفنان.

وهناك لاحظ السحار ألوانا من الفن الإندونيسي، الذي كثر في الرقص، وفي

---

[1] . نفس المصدر ص ٥٢

[2] . نفس المصدر ص ١٣٤

إحدى السهرات الليلية التي قضاها السحار مع الرفاق في بيت سلطان إحدى الجزر، شاهد رقصة تستخدم فيها الأذرع والسيقان، ومن هنا كان استلهامه لاسم هذه القصة.

وقد زادت السحار متعة في نقله لتلك اللوحات، لوحة إثر لوحة، كلها نابضة حية، زاخرة بكل المشاعر التي تملأ جوانح من يرى بلدا بها الكثير من مظاهر الطبيعة الخلابة، وتخللت الرحلة بعض المشكلات التي تعرض لها السحار بوصفة سكرتير البعثة، ولكن عرفت عنه دماثة الأخلاق، والروح العالية في تحمل أخطاء الضمير، وقد ثبت في أثناء عودة الرحلة بعد نظر السحار في شرائه للأشياء بمجرد رؤيتها حتى ولو كان في جدول الرحلة المرور بهذه البلدة مرة أخرى، فإنه مؤمن بأن الأقدار تسيّر الإنسان كيفما تشاء هى، لا كما يشاء هو، وكما مر بنا فقد اشترى بعض ما اشتهى من ممباي، وسخر منه بعض الرفاق ونظروا إليه بوصفه قرويا ساذجا يزور المدينة لأول مرة وفي العودة لم يتح للبعثة قضاء يوم آخر في ممباي. وأكملت رحلتها إلى بيروت، وبعض الأعضاء يكاد ينفجر لعدم استطاعتهم شراء ما أراد من ممباي.

وعاد السحار إلى القارئ. ووجد لفيفا من الأصدقاء في انتظاره. كل منهم ينتظر ما يعود به، ويستعجل ما سوف ينفذ له من طلبات، وعاد سيرته الأولى في عمله. بعد رحلته الممتعة التي أمدته بهدوء أعصابه. حتى يستطيع مواصلة العمل.

لوحات رائعة وصفها السحار لطبيعة التي تمتاز بسحرها وجمالها في الجزر الإندونيسية، كما أمدنا بمعلومات دينية وثقافية أخرى اطلع السحار عليها، كما كان لا يشوش في السؤال عن كل ما كان يلفت نظره من أشياء لا يعرف عنها معلومات. فهو دائما يتعطش للمعرفة ولا يمّل أبدا في البحث عنها، ومع كل ما امتاز به هذا العمل من لمحات فنية، إلا أنها لا تعتبر قصة بمقوماتها الأساسية، فالسحار اقتصر هنا على التسجيل، وحشد الحقائق، والتنقل من بلد لبلد، ينفل من هنا لوحة ومن هناك وصفا.

هذه القصة هي من قصص الرحلات التي أمدنا السحار فيها بكثير من المعلومات

عن البلاد التي مر بها، وقد أجاد في الوصف كل الإجادة، كما استخدم لغة بسيطة سهلة تنسلّ إلى قلوب القراء في راحة دون تعقيد، وهذه القصة ليست مجردة وصف لتلك البلاد التي زارها جودة السحار فقط بل وصف البشر، وسلوكهم، وأفكارهم، وتاريخهم ومعتقداتهم ووصف اللحظات التي عاشها جودة السحار في تلك البلاد. أبدع في وصف الناس والعادات والتصرفات، وأبدع في وصف الشوارع والأماكن. طبعا بالإضافة إلى الفنادق والمقاهي والسنيمات.

المراجع والمصادر

١. ناصر عبد الرزاق: الرحلة في الأدب العربي
٢. فاطمة الزهراء الموافي: القصة عند عبد الحميد جودة السحار
٣. جودة السحار: أذرع وسيقان
٤. أحمد أبو سعيد: أدب الرحلات وتطوره عند العرب
٥. جودة السحار: القصة من خلال تجاربي الذاتية
٦. صفوت زيد: التيار الإسلامي في قصص عبد الحميد جودة السحار